الاستعارة والكناية: الأصول البلاغية للنظريات الدلالية الحديثة

تأليف بريجيت نيرليخ. Brigitte Nerlich(جامعة نوتنغهام)

تر: أ.حسين خالفي

تعد عودة البلاغة من ضمن انشغالات جميع المهتمين باللغة، إذ يُظهرون شغفا حقيقيا بها،والاستعارة التي هي ملكة الصور يمكنها أن تصبح فاتنة النوادي والصالونات. (Le Guern لوجارن 1972)

كتب سيلفان أوغو(Sylvain Auroux) في ملخص مقال له صدر سنة 1995، يقول:سوف نحاول أن نظهر في هذا المقال أن أصل النظريات الدلالية موجودة في البلاغة (نظرية الصور أو المجازات tropes) ونظرية الترادف.

سنشير في هذا المقال إلى هذا التأثير البلاغي على نظريات العلامة ونظريات الدلالة، أي على السيمياء وعلم الدلالة، وهو الشيء الذي تم مرات عديدة بطريقة مستقلة. فبالنسبة لنظريات الدلالة يمكننا تمييز عدة تأثيرات عليها من الأفكار البلاغية منذ نهاية القرن 18م إلى نهاية القرن 20م، أي منذ أن ظهر علم الدلالة كممارسة معرفية.

وسيقودنا مسار هذا المقال إلى دي مارسيس (Du Marsais)، الذي يمكن النظر إليه كتمهيد لظهور علم الدلالة الحديث:"الصور خاصية جدّ طبيعية وجدّ عادية، وجدّ مشتركة في اللغة الإنسانية [...] في الواقع، أنا متأكد من أن جولة في السوق ليوم واحد تمكننا من

صياغة عدة صور، لا يمكن أن نصل إليها في عدة أيام داخل التجمعات الأكاديمية، فمثلما أن الصور موغلة في الكلام العادي للناس، فعلى العكس لن نجد طرقا كلامية من دون صور، هذا إذا كان من الممكن وضع خطاب ليس فيه سوى تعابير غير تصويرية."فجميعنا يعتقد أن اللغة الشعرية تخترق اللغة العادية.. فمن المهم أن تكون مختلفة، خاصة، ومتطورة، تستخدم آليات وتقنيات مثل الاستعارة والكناية، وهي أدوات غير متاحة لعامة الناس. ومع أن أعظم الشعراء[...] يستعمل في الأساس نفس آلياتنا: الاختلاف الوحيد هو استخدامهم لها بموهبة أكبر، موهبة يصقلونها بالدراسة والتطبيق.

الاستعارة هي آلية جد عادية نستعملها دون وعي منا، بطريقة آلية، وبجهد بسيط[...] تسمح لنا بفهم أنفسنا وفهم العالم الذي نعيش فيه، بطريقة أسهل من صيغ التفكير الأخرى.

الاتجاه الأول: البلاغيون

الاتجاه الأول الذي له أثره البالغ يمتد إلى البلاغة القديمة(أرسطو، سيسرون، كانتنيان، فويوس، راموس، فوكيلان، لامي...) وتمتد في أعماق القرنيين السابع والثامن عشر، عندما اكتشف الفلاسفة وعلماء الأنثروبولوجيا واللسانيين غنى الروح الإنسانية وإبداعها، وقبل كل شيء العلاقة الضيقة بين الفكر واللغة. فلقد مضى زمنا قبل أن تعرف البلاغة انفتاحها.

وعندما نرصد علاقة مباشرة بين صور البلاغة (خاصة المجازات) آليات ربط معرفية، ميكانيزمات التعبير اللساني، وميكانيزمات تغيير المعنى مع مرور الوقت. وقد تطلب هذا

وقتا كي نتأكد من الفرضية اللوكية (Lokienne) التي تقول بأن الأسماء الدالة على الأفكار المجردة لها أصول استعارية في الأفكار المحسوسة.

السيميائيات اللوكية تمثل في الواقع أصل نظريات العلامة الحالية ونظريات المعنى، التي طورت في أوربا والولايات المتحدة. ففي انجلترا أثمرت البلاغة تحت تأثيرفلسفة البلاغة عند بورك(Burk)، كامبال (Campbell)، بلير(Blair) وبريستلي (Pristly) الذين أسهموا في إرساء فلسفة بلاغة جديدة.

وفي الولايات المتحدة أعيد تأويل البلاغة فلسفيا في السيميائيات (السيميوطيقا) التي أرسى لها بورس(Peirce). ولكن تأثير لوك لوحظ أكثر في ألمانيا وفرنسا. وسوف نعود إلى عمل لومبارت(Lambert) الذي تأثر بلوك (Lock). لكن يكفي الإشارة هنا إلى المثال الذي قدمه لوك في الفصل المتعلق بالأسماء في: (الفكر في دلالته الأولى دال.) وأعطى –على سبيل المثال– تغييراته في ترجمته المباشرة في مدخل قاموسه النحوي والنقدي لأدلانق (Adelung). بقوله: «أغلب الأسماء هي في الواقع استعارات، فكلمة فكر هي استعارة إذا دلّ على كائن غير مجسد ومعقلن، لأن معناه الطّبيعي هو الريح.

نعلم جيدا بأن الفصل الذي تحدث فيه لوك عن الاستعارة كمرحلة وسطى بالنسبة للبحوث الفرنسية كما هو الحال عند كوندياك ودي بروس وأخرين كثيرين، ممن حاول فهم طريقة عمل الفكر البشري انطلاقا من تحليل ايتيمولوجي وسيميائي للغة.»

هوجمت هذه الابستيمولوجيا الايتيمولوجية من طرف تورغو(Turgot) الذي رفض هذا النوع من البحث الشبيه بالميتافيزيقا التجريبية.و يعد كل من تورغو ودي مارسيس أكثر

راديكالية من الآخر، ومع ذلك فقد طورا علم دلالة تزامني وزمني للنظام المعرفي والثقافي.وفي ألمانيا كان الكتاب السيميائي للومبارت حول المعرفية الرمزية والاستعارية الذي عدّ مقابلا لكتاب تورغو وبيرنهاردي ودومارسيس. ولقد أسس كل هؤلاء الباحثين فلسفة بلاغة جديدة.

1.2 – لومبارت: في أصول البلاغة المعرفية

تتميز فلسفة اللغة المتعلقة بالمعرفة الرمزية والإستعارية التي أرسى لها لومبارت في: Neues organon بالحداثة الملفتة للانتباه. فقد رصد لومبارت بنية دلالية ثلاثية للغة:

1– التقعيد لهذا النظام الدلالي يتشكل بالكلمات القاعدية حيث تتأسس الدلالة على الوضوح الخالص والبساطة.

2– تتبع الكلمات الاستعارية لبناء قواعد انطلاقا من هذه الكلمات بواسطة إجراء مقارني وتخيلي مؤسس على مقارنة ثلاثية (comparationis tertium).

3– وأخيرا هناك كلمات تحظى بدلالتها عن طريق إجراءات تعريفية، تعريف يستخدم كلمات قاعدية وكلمات استعارية. وهذه الكلمات تتشكل من تعريفات يمكن أن توظف ككلمات قاعدية ومن هنا تبدأ إجراءات إبداع الدلالة المعقدة

وانطلاقا من هذه البنية الدلالية والمعرفية الثلاثية، حاول لومبارت الإجابة على السؤال الأساسي بالنسبة لكل البحوث السيميائية والدلالية لمعرفة من أين يتأتى المعنى للكلمات؟. وحسب لومبارت فالمعنى يأتي من الوضوح، وعن طريق المقارنة والتعريف، وهذه الإجراءات نجد فيها أن الكلمات القاعدية تدليلية، انطلاقا من إجراءات إدراكية ومعرفية للمفاهيم، تتعقد

باستمرار. وبالنسبة للومبارت ليس هناك علاقة بسيطة للربط بين الكلمات والأفكار، فالفكرة تمنح الكلمات دلالتها، والتغييرات الدلالية مهما كانت نتيجتها فهي روابط بين الأفكار(التغيير بالاستعارة الكناية،أو المجاز كما يقول فونتانيي Fontanier ورايزيغ Reisig).

وبالنسبة للومبارت هناك مستويان: المستوى الداخلي للمفاهيم والإجراءات المفهومية والمقارنة والتعريف مؤسسان على الإدراك والوضوح.

أما المستوى الخارجي للكلمات فهو عبارة عن إجراء إبدالي (نقلي) (الاستعارة). وهذان المستويان (الداخلي والخارجي) مرتبطان، بحيث أن الكلمات تبني المعارف، كما يمكنها أن تستخدم لتحويل هذه المعارف. فالمعارف والمفاهيم، الإجراءات المعرفية تبني بدورها دلالية الكلمات. فالكلمات هي الوجه التعبيري للمفاهيم.

ولكن بما أنّ هناك وجودا للمفاهيم أكثر من الكلمات، فإن على الكلمات أن توسع دلالاتها، وعليها أن تصبح متعددة المعنى ولا يتسنى لها ذلك إلا عن طريق الاستخدام المتكرر للاستعارة. وبما أن لكل لغة عددا محدودا من الكلمات في متناولها، فهي لا تكفي لتحديد جميع المفاهيم وجميع تغيراتها، وعندها لا يمكن أن نشترط وجود كل كلمة ضمن مدلول محدد.

وإذا كان الحال هكذا فمن غير الممكن تحديد مفاهيم أخرى تفتقر إلى كلمات في اللغة، ونتيجة لهذا، فإن أغلب الكلمات هي متعددة المعنى، وأن مدلول الكلمات قد يكون أحيانا مقيدا وأحيانا أخرى أكثر اتساعا.

تتأسس الاستعارات بدورها على مبدأ التماثل، الذي يسمح لنا برؤية التطابق بين شيئين، حيث إنه إجراء للإدراك المعرفي؛ المتغير أيضا. (لومبارت 1764). وها نحن نعود إلى لوك وأرسطو: «نعلم جيدا منذ زمن طويل بأننا نقارن بين عالم مرئي وآخر غير مرئي، عالم الجسد مع عالم العقل، بين الأحاسيس مع الأفكار، وبأننا نستخدم نفس الكلمات والتعابير في هذه الميادين. والكلمات تأخذ بهذا معنى مضاعفا بل ومتعددا، فرؤية الضوء داخل الغرفة ورؤيته داخل الفكر هي طرق شائعة في الكلام.

إن البلاغة المعرفية ذات الأبعاد الفلسفية واللوكية (نسبة إلى لوك) التي نجدها في كتاب جيربار(Gerber) في ألمانيا وبريال (Bréal) فرنسا، وعند لاكوف (Lakoff) وجونسون (Johnson) في الولايات المتحدة والتي اغترفت مباشرة من نظريات المعنى عند بورس (Peirce) وهوسرل(Husserl). مثلما أشار إلى ذلك جاكبسون (Jakobson) في نظرته إلى تطور السيميائية.

إن هذه البلاغة المعرفية تمثل مقابلا للبلاغة التقليدية والتربوية التي تنظر إلى البلاغة على أساس أنها فن الكلام، وتنظر إلى الصور كالإستعارة والكناية كعدول عن العادي. وهي النظرة التي مازال فونتانيي (Fontanier) يدافع عنها في كتاب جاء في نهاية البلاغة التقليدية.

2.2– فونتانيي: نهاية البلاغة التقليدية

كتب فونتانيي كتابه حول دراسة الاستعارات سنة 1821، إلى جانب تناوله العام للصور الخطابية الأخرى من دون الاستعارات سنة 1827 (وكلاهما أعيد إصداره من طرف جيرار جونات سنة 1968).وقد كتبها حسب تقاليد المداخل حول الصور عند دومارسيس(

Du Marsais) وعند بوزييه(Beauzée) بالنسبة للموسوعة.ولكن كتاباته تبين بصفة عامة تطابقات مع تلك الإصدارات المحسوبة على فلسفة اللغة من طرف روث (Roth)وبيرنهاردي، ومع دروس علم تطور دلالة الألفاظ (Sémasiologie) التي قدمها رايزيق (Reisig) وتصب في نفس الفكرة. ومثل رايزيق لكن بتتبع مباشر لدروس بوزييه، قعد فونتانيي لتحديداته للاستعارات الأساسية (التي صنفت منذ بوزييه إلى الاستعارات والكنايات والمجاز) بطريقة يمكن للأفكار أن ترتبط فيما بينها. ومثل رايزيغ الذي بحث في الكلام عن أداة لتمثيل الأفكار.

وقد حدد العلاقات التالية بين الأفكار:

العلاقات التبادلية أو التوافقية (correspondance) العلاقات الترابطية (connexion) وعلاقات التشابه(ressemblance). فبالنسبة إليه فالأنواع الإستعارية الثلاثة هي: الكنايات، المجازات والاستعارات، وهي مرتبطة بهذه العلاقات الثلاثة بواسطة التبادل.

وعلى العكس من دومارسيس ورايزيغ ينظر فونتانيي إلى الصور على أساس أنها إنزياحات للتعابير المباشرة، العادية والمشتركة.

سيذهب خلف دومارسيس ليتناول ما لم يدرسه ولم يصنفه، ليس فقط صور الكلمات، لكن صور التفكير أيضا. بمعنى أنه ينتقل من الكلمة إلى الجملة، ومن معنى الكلمة إلى معنى الملفوظ.وعلى غرار بوزييه يضع تمييزا بين المعنى الحرفي والمعنى العقلي (المعنى المألوف والمعنى المحدث. كما قال هرمان بول Hermann Paul فيما بعد).

إن المعنى العقلي معنى منزاح (متعرج) أو مصوّر من خلال تجميع الكلمات، أما المعنى الحرفي فهو يتجلى للذهن من خلال ظروف الخطاب عن طريق نبرة الصوت أو عن طريق الربط بين الأفكار المعبر عنها مع تلك التي لم يعبر عنها.

وكأغلب زملائه الألمان ومتأثرا مثلهم بالفلسفة السيميائية للوك فقد رأى أن هناك علاقة حميمة بين اللغة والفكر، وبين الكلمة والفكرة، مع وجوب الإشارة إلى العلاقة بين الإدراك الحسي والفكرة والكلمة، حيث يقول: يتشكل الفكر من مجموعة أفكار، وتعبير الفكر عن طريق اللغة يتأتى من خلال الكلمات[...] وسوف نرى [...] ماذا تمثل الكلمات بالنسبة لتمثيلها للأفكار. فلفظ فكرة يعني الإشارة إلى الموضوعات التي يعاينها الذهن، تماما كالصورة، والإشارة إلى الذهن الذي يرى بطريقة نسبية، تماما كالرؤية أو الإدراك.

الأفكار والكلمات التي تعبر عنها هي إذن صور موازية للواقع، فهي مصورة (مجسدة) منذ البداية، كما يقول جيربر(Gerber) (1871) وهذا التصوير للفكر والكلام طبيعة أصلية فيهما، وقد تم معاينة هذا فيما كتبه فونتانيي فيما يخص المجاز والصور البحتة. لقد فصل فونتانيي بين التوظيف شبه الطبيعي(Quasi-naturel) التلقائي (العفوي) والضروري للصور (المجازات) المسؤولة عن بناء اللغة وتطورها، مع التوظيف الواعي والحر للصور، قصد التلفظ بكلام جديد بفرض وضع صورة.

تتجلى الاستعارات إما كضرورة وإما عن طريق المدلول لكي تضيف الكلمات التي تفتقر لها اللغة التي تعجز عن التعبير عن بعض الآراء، أو كاختيار للتعبير بالصور بغرض تمثيل الأفكار بصور حيّة ومؤثرة أكثر من علاماتها الخاصة.

استغل علم الدلالة التاريخي بعد 1830 تغير المعنى المؤسس على الإجراءات المجازية كالاستعارة والكناية مثلا، في نفس الوقت الذي استمرت فيه البلاغة والأسلوبية في تحليل الاستعمال الشعري للاستعارات. استغل الفلاسفة أمثال جيربر الاستعمال (cataphorique) والشعري للصور، وكذا التغيير الدلالي الناتج عنها. وسنرى الآن وفق أي تقليد بلاغي وفلسفي صاغ جيربر علم الدلالة البلاغي المندمج(Sémantique rhétorique intégrée).

3-2- الرومانسية: أصول البلاغة التأثيرية

تأسست بلاغة جديدة وعلى فلسفة جديدة وعلى مسلمة أن الانزياح هو المعيار الذي ندرك من خلاله تحت ضلال الرومانسية، فالرومانسية لم تحمل فقط التحولات النظرية والتطبيقية للأدب لكن أيضا التحولات الفلسفية والبلاغية.

ففي نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 مكننا ملاحظة تحولات البلاغة عن طريق التفكير الرومانسي خاصة في ألمانيا حيث ظهرت بلاغة الانفعالات والمشاعر التي أصبحت ظاهرة أوروبية عامة فروسو (Rousseau) مثلا كتب: لبثّ قليل من الحرارة في الذهن نحتاج إلى الاستعارات والتعبيرات التصويرية ليصغى لنا. وهذه هي بدايات ردّة الفعل على الاستعارة المؤسسة على الفصل بين التأثيري والعقلي، بين الانفعال والفكر، وهو الفصل الذي مازلنا نجده في المناقشات حول التعبيرية ووضع الاستعارة الدائرة بين بالي Bally (1905) وأدونك(Adank) (1939) في بدايات القرن العشرين، كانت بداية هذا التحول من البلاغة إلى علم الجمال والفلسفة، سجلت في ألمانيا من خلال إصدار (نقد ملكة التخيّل)

كانط (Kant) سنة 1790. لقد حاول كانط تأسيس (La critique de la faculté des juger) جمالية عقلية ترتكز على اللذة اللامبالية، مع أن هذا المفهوم وُظّف كوسيلة لإثارة الفلسفة العقلانية نفسها، خاصة بفضل مجهودات شليغل (Schlegel) نوفالي (Novalis)، هولدرين (Holderlin) وهيغل (Hegel). وهذا ما أفضى إلى هدم الفلسفة التي أصبحت محكومة الآن بالجمالية "كعلم ملكي" (science royal)، وأصبح موضوعها الأساسي ليس فقط الفكر ولكن التخييل كذلك. فالصورة هنا تعوض الفكرة الخالصة، ويعوض الإبداع العقلانية.

سنتخذ من فيخت (fichte) نقطة انطلاق بدل كانط، منجذبين في هذا إلى الثورة الفرنسية، حيث انحرفت الفلسفة الألمانية عن النظري إلى التطبيقي فأفضت إلى البلاغة بصفة خاصة، ومثلما قال فريدريك شليغل (Friedrich Schlegel) أحد مؤسسي المدرسة الرومانسية في ألمانيا سنة 1798 في مؤلفاته حول البلاغة اللامنتهية la rhétorique infinie: هناك بلاغة مادية ومتحمسة تنتهك كثيرا وبطريقة غير منتهية التجاوزات السفسطائية للفلسفة [...] إذ هومقدر عليها أن تحقق فلسفتها بطريقة تطبيقية، وتنتصرعلى اللافلسفي التطبيقي la non-philosophie وعلى الضد فلسفي l'anti-philosophie ليس فقط بطريقة جدلية، ولكن لهدمها بالفعل. لقد دافع كلا من روسو وفيخت عن أخذ هذا المثالي على سبيل الوهم من طرف كل من لا يؤمن بما لا يراه.

هي إذن أقوال ثائرة على بلاغة متأثرة مباشرة بالبلاغة الثورية. وسوف تتطور الفلسفة البلاغية والتطبيقية الجديدة كفلسفة جديدة للغة ثارت هي الأخرى ضد الفلسفة التجريدية الخالصة.

انطلقت الفلسفة الرومانسية للغة من خلال مؤلفات هيردر (Herder) وهومبلت (Humboldt) بحيث أرادت أن تبيّن أن اللغة ليست أداة بسيطة للتعبير عن الفكر: فالفكر تمارس اللغة تاثيرا سلطويا عليه.

تشترك فلسفة البلاغة الجديدة مع فلسفة اللغة الجديدة في وجهة النظر أن اللغة والفكر هما بلاغة في كليتهما. كما تشترك في وجهة النظر أن اللغة والفكر هما أصلا بلاغة، وهي رؤية موروثة من فيكو Vico الذي أعطى مكانة مركزية للتخييل في نظريته عن الفكر البشري.

كتب فيكو يقول: إنه يجب علينا توظيف خيالنا لفهم الأشياء التخييلية ويجب علينا أن نكون كالرسامين بوضعنا لصور إنسانية.ومثلما يقول جون بول (Jean Paul) ومن بعده جيربر: إن اللغة الإنسانية ماهي إلا نسيج من الصور الفعلية، فاللغة منذ بداياتها تصويرية وتخييلية في جميع تجلياتها. وبالتالي فالفكر كذلك. لكن كتاب جيربر اختفى بطريقة شبه كلية بسبب الاتجاه الثاني الذي حمل أفكارا بلاغية ودلالية تطورت خلال المرحلة التاريخية.

3- الاتجاه الثاني: التاريخية l'historicisme

لقد كان لقدوم اللسانيات التاريخية والمقارنة في بداية القرن 19 م أثر في انقطاع الصلات بين اللغة والفكر البشري، وبتأثير العلوم الطبيعية أصبح تحليل اللغة يتم في ذاتها ولذاتها، كنظام صوتي (phonique) شبه بيولوجي(quasi-biologique). ونتيجة لهذا أقصيت دراسة الصور البلاغية وأقصيت معها دراسة العلاقة بين اللغة والإنسان والفكر والمجتمع، ولم يعد يولى لها اهتمام إلا في الدراسات الهامشية جدًا للنظرة الفلسفية، وفي السيماسيولوجيا (sémasiologie) وفي علم الدلالة

التاريخي. وعليه انبثقت الاستعارة والكناية كأدوات قيمة وموجزة تقتفي آثار الفكر البشري، وحركته التي يطبعها على الكلمات، التي تغدو وسيلة لنقل الأفكار.

تجاوزت فلسفة اللغة في ردود فعلها الدلالية على هامش اللسانيات التاريخية بديهة أن اللغة ليست تمثيلا للفكر فحسب مع أننا نتذكر البلاغة التقليدية وبعض معارف البلاغة الفلسفية.

وقدم رايزغ (Reisig) في الفترة مابين 1822 و1824 دروسا حول اللسانيات اللاتينية، وصدرت هذه الدروس بعد وفاته في سنة 1839، وقد أضاف لهذه الدروس السيماسيولوجيا أو دراسة المعنى إلى دراسة الأشكال وإلى دراسة الجمل. يقول: إن أساس تطور الأفكار في الكلمات هي تجميع الأفكار في مجتمع التمثيلات[...]هناك عدة تجميع للأفكار لها خصائصها بين التمثيلات الإنسانية. يمكننا تحديدها عن طريق التعبيرات التي نعاينها في البلاغة، لكن يمكن توظيفها في السيماسيولوجيا، خاصة المجاز والكناية والاستعارة، فإذا كان لهذه الصور غاية جمالية فهي تنتمي إلى البلاغة حتى ولو أنها وظفت بطريقة فردية، لكن إذا تطورت طريقة ما في الكلام داخل لغات خاصة وعند شعب ما، فإن هذا التطور خاضع لهذه الصور الخطابية، وهي مهمة في هذا السياق بالنسبة لنا.

لقد كان هذا التصريح إشارة لانطلاق السيماسيولوجيا الألمانية ومعبرا للدلالية الفرنسية، فكلاهما يبحث في القوانين العقلية التي تنظر إلى تغيير المعنى أكثر من الإبداع الدلالي في الخطاب العفوي والشعري، مثلما قال شوفا ليي(Chevallet) في 1853: "الاستعارة صورة بيانية تنوب فيها الكلمة عن الموضوع وعن النوع أو الفعل الذي تحدده في معناه الخاص، يمكن أن يحدد موضوعا آخر أو نوعا آخر أو فعلا آخر، انطلاقا من التشابه الذي يرصده الذهن

بينهما، وكل استعارة تقوم على المقارنة التي تكون في ذهن ذلك الذي يلجأ إلى هذه الصورة."

الكناية هي صور بيانية تقوم الكلمة من خلالها كي تكون علامة لفكرة ما وظفت في مكان كلمة أخرى تعبر عن فكرة قريبة من الأولى، بمقتضى علاقة التجاور(التقارب) الموجود بينهما، وهي العلاقة التي يمكنها أن تبعث إحدى الفكرتين في الذهن انطلاقا من الأخرى.

منذ أرسطو يفترض أن التجميعات ضمن الأفكار تتحكم فيها قوانين التجاور (ما سميناه لفترة طويلة بالتقارب أو التوافق أو الارتباط) والتماثلية (التشابه، المقارنة، والتماثل) وقوانين التباين أيضا. نعتقد أننا سنجد المبادئ المساعدة على شرح تغير المعنى (المعنى يساوي فكرة) من خلال ربط الصور (مثل الاستعارة والكناية والسخرية) بهذه المبادئ المشتركة. بالإضافة إلى المبادئ المنطقية (أو المجازية synecdoquique) ومبادئ التحديد أو التخصيص المعنوي، أو مبادئ المدلول أو التعميم المعنوي (في الحالة الأولى يضيق المدلول أو المعنى ويتسع القصد وفي الحالة الثانية يتسع المدلول ويضيق القصد) ومن أجل الوصول إلى أربعة أضعاف من التحديدات لآليات التغيير الدلالي المتمثلة في الاستعارة والكناية، التعميم والتخصيص.

لقد ضمن إرث دومارسيس في فرنسا والبلدان الفرانكوفونية بأن أغلب الدلاليين كشوفالي وديرماستيتر (Darmasteter) وبريال (Breal) وفيما بعد ميي (Meillet)، نيروب (Nyrop) وإيزنولت (Esnault) جميعهم تبني علم دلالة لا يفتقد في نظرته للعلاقة بين اللغة والمجتمع واللغة والإنسان، أما في ألمانيا فقد عمل السيماسيولوجيون أمثال هيخت (Hecht)، هيرديقن (Heardegen)، هاي(Hey) وتوماس (Thomas) وفق خط رايزيغ، واستمر أغلبهم في توظيف

الصور كالاستعارة والكناية لإيجاد تصنيفات عقيمة لمختلف أنواع التغيّرات الدلالية. وقد تم تقنين التحديد الكلاسيكي للآليات الدلالية الأربعة في المؤلف المهم لبول(Paul) (1886)، ونجد في فرنسا مثالا جيدا لهذا النوع من التصنيفات عند كليدات (Clédat) الذي كتب: نتعلم بسرعة معرفة الشروط العامة للتطور المعنوي للكلمات. لندرسها عن قرب، ونستطيع تقليل الإجراءات المنطقية للتحول إلى أربعة إجراءات. هي أولا: "المدلول" و"التحديد" [...] ومن جهة أخرى هناك الربط المنطقي بين السبب والأثر، الكل والجزء، المحتوي والمحتوى، العلامة والشيء الدال عليها ..الخ، وعن طريق "الربط" يمكن لنفس الكلمة والتي هي (زجاج verre) أن تدل على مادة، شيء مصنوع من هذه المادة ومحتوى هذا الشيء (شرب كأس من الماء). وأخيرا: "المقارنة" وهي نبعٌ لا ينضب من المعاني المجازية الجديدة: فورقة غليظة تدعى هكذا عن طريق المقارنة مع غلظة ورق الشجر..الخ

يشكل كل من التحديد، المدلول، الكناية والاستعارة القوانين الكلاسيكية الأربعة للتغييرات الدلالية، وهي نفسها القوانين الحالية.

4- الاتجاه الثالث (المنسي oubliée): المعرفية cognitivisme

منحت النظرة الأكثر فلسفية مكانة مهمة للصور البلاغية في التشكيل المشترك للفكر واللغة وهي النظرة التي دافع عنها جيرير. وهذا تقليد دأبت عليه الفلسفة التي تنظر في معنى الكلمة ووظيفة الصور كالاستعارة والكناية وقد استمر فيه الألمان أمثال بايس (Biese)(1923) وموثنر(1901) وكاسيسر (1923). وسنركز هنا على جيرير.

تقوم فلسفة اللغة عند جيربر على الفلسفة الكانطية وعلى رفضها بصفة كلية عقد أراد تعويض نقد العقل الخالص بنقد اللغة، كما أراد بعث فلسفة لغة جديدة، وبعث المعرفية كظاهرة ربط داخلية، لقد قرأ كانط فيخت بيرنهاردي، رايزغ، همبولدت ستينثال، هاييس، لومبارت، هامان، وهيردر وعدة فلاسفة ولسانيين آخرين، مثل مقال برﻳال حول شكل ووظيفة الكلمات (برﻳال 1868)، لكن بفضول، ليس إلى هذا الحد من الفعل منذ تطور الدلالة بعد (1870) .

حلل جيربر اللغة انطلاقا من ثلاثة وجهات نظر: حللها كفن (جمالية) وكتواصل (فقه اللغة) وكمعرفة (فلسفة). كما قارن جيربر التمثيل اللغوي بالتمثيل عن طريق فنون أخرى كالموسيقى والرسم. وبالنسبة إليه فالمعجم والنحو وسائل تسمح لنا بإنتاج مراجع لفن اللسان في أفعالنا الكلامية، وعليه فكل التمثيلات اللغوية استعارية أو تصويرية. هي صور (رسوم) تتوسل الكلام، وبمساعدة وسائل تمثيل تمنحها اللغة (المعجم والنحو).

لا يمكننا فهم هذه الأشكال والصور إلا في إطار سياق ما، كما يقول ويجنر (Wegener) (1885). ولفهم الصور لابد من مرجع ما يفرضه السياق لرصد تطور اللغة وفهم الصور التي تضيع ببطء وتصبح تعبيرات تقريبية لفكرنا الذي يفهمها بطريقة آلية، وتبدو الكلمات وكأنها اعتباطية لكنها في الواقع معللة بإجراء الرسم اللساني في شاشة السياق، وعموما فمعنى الكلمات يبدو أنه محدد بدقة، لكنه في الواقع يعاد تحديده (يلون أو يعاد رسمه) في كل مرة تطرح الكلمة وتؤول في إطار سياق معطى.

«كل الكلمات هي صور صوتية ومعانيها تصور منذ البداية، فجذورها فنية أكثر من التغيير المعنوي المتأسس بالضرورة على حدس فني. ليس هناك كلمات خالصة: بمعنى النثر داخل اللغة.»

ومثلما أن الكلمات والجمل هي صور، والتمييز بين التوظيف الخاص والتوظيف التصويري للكلمات يختفي، كل كلمة هي تمثيل مصور لصورة تمثيلية مشكلنة.

يمكننا القول إذن إن المعرفية التي يدعوها جيربر مع كانط بالمفهوم(verstand)، تمنحنا الإجراءات التشكيلية للتمثيلات، وبأن الأصوات تستعمل لصيغ هذه التمثيلات التشكيلية، والملكة المعرفية ليست هي الأساسية في النتاج الأدبي في هذا الإجراء التمثيلي والتدليلي، بل الأساس هو ملكتنا التخيلية والجسر بين المعرفة والتخييل يوضع عن طريق الشكلنات المعرفية.

لم يصغ جيربر نظرية عامة للغة كنتاج فني فحسب، بل حاول الإسهام في صياغة القواعد النظرية لعلم الدلالة التاريخي الذي أسسه رايزغ. وقد اعترض على افتراضين ببنيان عددا من دراسات علم تطور دلالة الألفاظ (السيماسيولوجيا):

1)– اعترض على أن هناك فرق بين المعنى الأساسي (الأولي) والمعنى التصويري.

2)– وبأن هناك فرق بين المعنى الأولي والمعنى المنزاح (sens primitif et sens dérivé). ومثلما أن هناك الكلمة تصويرية من أساسها (وكذلك الجملة– يتحدث جيربر هنا عن الصور النحوية).

لا يمكننا أبدا معاينة معنى أساسي والقول بأن المعاني الأخرى للكلمة هي معان منزاحة، ولا يمكننا رصد معنى أولي وإزاحة المعاني الأخرى عن طريق قانون دلالي ما. ومهما أرجعنا انخفاض الصور البيانية إلى ميكانيزمات التغيير الدلالي، فإن جيربر يناقشها على أنها ميكانيزمات للإبداع الخاص باللغة. مثل بوزييه beauzée، فونتانيي fontanier ورايزغ وبيرنهاردي(1801، 1803) الذين ميزوا بين ثلاث صور بيانية أساسية، هي: المجاز الذي يقوم على ما نسميه بالتبعية، والكناية التي تقوم على ما نسميه بالتتابعية، والاستعارة التي تقوم على مانسميه بالتماثلية.

واصل جيربر بطريقة أو بأخرى مشروع فلسفة اللغة عند بيرنهاردي، وأسس فروقا بين هذه الصور البيانية الثلاثة وفق مميزات مختلفة فقد كتب بأن المجاز يقوم على أساس الإدراك، والكناية تقوم على أساس الانعكاس (ردة الفعل réflexion). أما الاستعارة فتقوم على التخييل. وبالتالي فقد حاول الربط بين الأنواع الثلاثة مع ملكات عقلية حددها كانط وآخرون. ويميز جيربر مثل لومبارت بطريقة مابين ثلاثة مستويات دلالية تشكل تدليلية الكلمات: المجاز كصيغة إدراكية للدلالية، الكناية كصيغة معقلنة للدلالة، والاستعارة كصيغة مصورة(imagèe) أو عجائبية (fantasmagorique) للدلالية.

ولكن كما يقول مييز (فلنحاكي بييز Biese) في أسلوبيته الألمانية: فلا تصنيفات بيرنهاردي و لا تصنيفات جيربر استطاعت أن تسهم في تطوير دراسة الصور البيانية التي تتناقض مع فلسفة اللغة التي وضعها جيربر نفسه، وبحسبها فالإبداع والتطور اللغوي يتأتيان من التوظيف الدائم للصور. وقد شجعت هذه الجمالية اللغوية من طرف علماء النفس واللسانيين والفلاسفة في تلك الحقبة. فقد استحسن ويندت (windt) وجهة النظر الجمالية التي

تبناها جيربر. كما تعامل هنري (Henry) ايجابيا مع جيربر «ومذهبه المعروف في النظر إلى الصور البلاغية [...] وقود اللغة والتحول الدلالي» . ففي تعليقه على كتاب ديرما ستيتر يقول نايتزخ: « البلاغة استمرار للوسائل الفنية الملازمة للغة» ونفس الشيئ يقوله رونيو(Regnaud) في فرنسا الذي ينظر إلى الاستعارة مثل رنان (Renan) كإجراء ضروري في اللغة. ونفس الآراء يبدعها مولر (Muller) في انجلترا، كما قرأ بييز لفيكو (Vico) ولومبارت وجيربر ومولر، ونايتزخ (Nietzsche)، فعبرا عن هذا اليقين في ذلك العصر من خلال مصطلحات حداثية:

إن العلاقة (الصلة) بين الصور والآليات الترابطية مثل التجاور contiguité والتماثل similarité التي لاحظها عدة دلاليين والتي فندها مييز(Meyer) رغم أنها اقتحمت من جديد في التعامل مع التغييرات الدلالية في عمل واندت(Wundt) وفي نظريات علم النفس اللغوي ، قال أدنك (Adank)في 1939: كل صورة يمكن أن تقارن مع نوع من الروابط. في الواقع إذا كان بالإمكان تمييز صورة كلمة كاستبدال لمصطلح بآخر، ومهما كانت نتيجة العملية السابقة بالنسبة لذهن الفاعل المتكلم أو لجماعة لغوية.

تسعى هذه العملية للمقارنة أو الربط بين مفهومين عن طريق تتبع قوانين التناقض (السخرية، قلب المعنى). وقوانين التجاور (الكناية، المجاز، والتلميح)، وكذا قوانين التشابه (الاستعارة). كل أنواع الصور مهما كثر عددها فإنها تنخفض إلى نوع من الترابط.

5- الاتجاه الرابع: النفسانيون les psychologismes

5-1. الترابطية: l'associationnisme

يقوم علم الدلالة التاريخي على الاستعارة والكناية كآليات لتغيير المعنى، آليات تستند إلى قوانين للربط بين الأفكار، وهذا النوع من الترابطية شاع بفضل هوم (Hume)، هيرتلي(Hartley)، براون(Brown)، جون ستوارت ميل (John Stuart Mill) وجالتون (Golton)في إنجلترا، أما في ألمانيا فقد امتزجت هذه الترابطية مع النظرية الميكانيكية للتمثيلات الذهنية التي بلورها هيربارت(Herbart)، لكن هذه التجريبية والترابطية الإنجليزية وعلم النفس الميكانيكي لهيربارت سرعان ما يتم تعويضها في مجال علم النفس بنظريات نفسانية أكثر تعقيدا، مثل علم النفس التجريبي وvuluntariste عند واندت في ألمانيا وعلم نفس النشاط الذهني عند بولهان Paulhan (1889) في فرنسا، حيث طورا معا نظريات المعنى وتغيراته إلا أن الترابطية تتسرب من جديد إلى هذه النظرية من خلال الدراسة التجريبية للروابط بين الكلمات.

يلاحظ واندت من جديد أن الاستعارة والكناية كآليات ترابطية تقوم على التماثل والتجاور. وعلى العكس يقترح بولهان نظرية تداولية وسياقية للمعنى تنطلق إلى حدود التفريع الثنائي التبسيطي الذي أقترحه واندت. وتطورات جديدة في علم النفس تهم الفكر واللغة والمعنى المتولد في النهاية عن نظريات أخرى للاستعارة والكناية.

5-2 علم النفس الجشطالطي la psychologie de la gestalt:

وهو علم النفس الأكثر قربا من الإستعارة، وهو في الواقع علم نفس معرفي يقترب من النظريات ذات البعد الذهني، عند جيل فوكونيي(Gilles Fauconnier) والتي اقترحها بوهلر( ) Buhler (1943) بتأثير من علم النفس الجشطالطي ونظريته في الإدراك. وهنا حيث تحدث الاستعاريون أمثال ريتشارد وبلاك عن التفاعل الدلالي، وتحدث الاستعاريون المحدثون عن

المزج، وتحدث بوهلر عن spharenmisschung في إطار سياق النظرية الجشطالطية وحول المفهوم الذي صاغه اهرنفلس (Ehrenfels) عن الفوق. Summativite – sur والتحت – sous-summativite

الاستعارة بالنسبة لبوهلر هي قاعدة كل المفاهيم، وقد أصدرت الفيلسوفة الفرنسية هيدويغ كونراد Hedwig konrad كتابا ضد أفكار واندت (وتلميذه وينكلرWinkler) وتبنت فيه الإطار البوهلري والجشطالطي قصد تحليل نفسي للاستعارة.

3-5 روديه Roudet: معرفية جديدة nouveau cognitivisme

يمثل عالم النفس اللغوي روديه عدوا آخر لواندت، فهو من الأوائل الذين بنو نقدا ضد خطأ أساسي خلده العديد من الدلاليين والنفسانيين واللغويين، بملاحظتهم لوجود علاقة استعارية بين معاني الكلمات (أو التي ينظر إليها على أنها نفس الشيء: الفكرة متعلقة بكلمة) عوض النظر في العلاقة الاستعارية (وكذلك العلاقة الكنائية) القائمة بينها العلامة وما تحدده.

لقد قال روديه في الماضي بأن اللسانيين أسسوا تقسيمهم بمختلف أنواع التحول الدلالي على الصور كالاستعارة القائمة على الارتباط بالتماثل والكناية القائمة على الترابط بالتجاور، ويبقى التقسيم الأكثر شيوعا هو التقسيم الذي يميز بين الإستعارة والكناية، التعميم والتخصيص، وقد أنتقد روديه هذه التقسيمات مثله مثل اللسانيين المعرفيين المحدثين لأنها ليست متجانسة، ولأن الثنائية الأولى هي من الآليات المرتكزة على المعايير النفسية والثانية ترتكز على المعايير المنطقية، بالإضافة إلى أن الثنائية الأخيرة هي من الآليات التي يمكن أن تكون نتيجة للأولى، وعموما فإن روديه يواجه التقسيم الشائع لواندت الذي وضع تمييزا

بين التغييرات الدلالية والمنتظمة والمشتركة والتغييرات الفردية والتلقائية(تظهر الاستعارة عند واندت تحت هذين العنوانين ويمكننا القول إنها مثل الإستعارة catachrèse ومثل آلية شعرية) بالنسبة لروديه كل تغيرات المعنى تبدأ مع الفرد، أي مع ما يسميه برغسون(Bergson) بالجهد التعبيري الذي يستجيب بواسطة التقليد. وكيف يمكن للفرد أن ينتج المعنى بهذا الجهد التعبيري؟ ينتجه باستغلاله كما هي الحال عند لومبارت وجيربر. فهناك نظامان سيميائيان: النظام اللساني والنظام المفهومي. وحسب روديه دائما هناك مستويان معروفان مرتبطان: من جهة هناك نظام الصور الصوتية المترابطة فيما بينها بروابط توزيعية (نظمية) وأخرى استبدالية (اللغة حسب دي سوسير). ومن جهة أخرى هناك نظام الصور للموضوعات أو الآراء المرتبطة فيما بينها بروابط التشابه والتجاور. لا يمكن لنظام اللغة استرجاع نسيج الصور الموضوعات والأفكار بصفة كلية؛ فحاجياتنا التواصلية تتجاوز دائما نظام اللغة. ولهذا فمجهوداتنا التعبيرية لا تنتج دائما بمجرد استدعاء بسيط للكلمة، لكن تنتج بواسطة استعارة الألفاظ إبداعًا جديدًا أو تغييراً دلاليًا.

يختار المتكلم من خلال جهوده التعبيرية بين أربعة تعاقبات: تذكر الكلمة الملائمة ثم استعارة الكلمة من لغة أو سجل آخر، إنتاج الكلمة الجديدة عن طريق التركيب وأخيرا تغيير معنى كلمة. لكن ما هي الشروط النفسية لهذا الإبداع الدلالي؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من تحليل النظامين من جديد: نظام العلامات ونظام الأفكار. فالتغيير الدلالي هو نتيجة تأثير أحد النظامين على الآخر .

– أو أن الفكرة نعبر عنها بكلمة تدل على فكرة مرتبطة بالأولى عن طريق التجاور أو عن طريق التشابه. وفي هذه الحالة تنزلق الكلمة من دلالة إلى أخرى.

– أو أن الفكرة دالة بكلمة سر على كلمة أخرى ترتبط بالأولى عن طريق علاقات توزيعية أو ترابطية. والدلالة هنا هي التي تنزلق من كلمة إلى أخرى.

ونتيجة للإجراء الأول يتم إبداع استعارات وكنايات، وقد تنتج تغيرات للمعنى على المدى الطويل.

أفكار رودييه هذه اتبعها فيما بعد أولمان (Ullmann)، ولكنها أثرت بصفة عامة على علم الدلالة التاريخي المؤسس على قواعد معرفية طورها كوش(Koch)(1987، 1995) فيما بعد.

5–3– باليBally: عودة التفاعلات.

مثلما رأينا عند رودييه فقد عوضت الفلسفة البرغسونية علم النفس الوندتياني (Wundtienne) في تطور أسلوبية حديثة بريادة بالي في سويسرا.ووظّف بالي أيضا المصطلح السويسري للروابط (الاستبدالية)، لكنه مزج بين هذا المفهوم السيميائي للروابط مع المفهوم النفسي للروابط، قصد دراسة كل أنواع الروابط في لسانيات الكلام، وعكس دي سوسير درس بالي اللغة من وجهة نظر استعمالي في إطار سياق ما ومن طرف متكلمين موهوبين ليس فقط بالذكاء ولكن أيضا بالمعارف. أصبح علم النفس اللغوي والتأثيري عند بالي مصدر الكثير من الدراسات المتعاملة مع الاستعارة كظاهرة تأثيرية متباينة مع الاستعمال العقلي للغة (أدنك،1939). ومثلما نجد في هذا التفرع الثنائي الوظيفي للغة، وظيفة تأثيرية أو وظيفة عقلية منبعها البلاغة التأثيرية وتطبع آداب تلك الفترة، لدرجة أننا نجده عنوانا لكتاب لاكوف(Lakoff) وتورنر(Turner): " More Than Cool Reason "

6- انصهار الاتجاهات الثلاثة:

انتهى التقليد الدلالي، الفلسفي، التاريخي والنفسي الطويل أو بالأحرى قوطع فيما بعد، بعدما ظهر أولمان الذي أقام تقسيماته الشهيرة عن التغييرات الدلالية على التمييز الذي أصبح تقليديا بين الاستعارة والكناية، أي بين التماثل والتجاوز، وهو أكثر ملائمة من التمييز الذي صاغه دي سوسور بين التوزيعي والاستبدالي وبين الدال والمدلول. لقد صرح سنة 1962 بأن اللغة بدون الاستعارة والكناية غير معقولة: فهذان الوسيطان يلازمان البنية الأساسية للكلام الإنساني. (أولمان 1962)

7- الاتجاه الخامس: البنيوية Le structurisme

تميزت سنوات الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر برفض علم الدلالة لفائدة النحو وبتأثير من البنيوية الأمريكية.

لكن قبل العودة من جديد إلى بحوث علم الدلالة و البلاغة في سنوات السبعينيات، يجب أن نحلل اتجاهات بلاغية خرجت في أوج انتشار اللسانيات البنيوية الأوروبية.

صدر في سنة 1916 كتاب «دروس في اللسانيات العامة» لدى سوسير الذي فتح المجال لرؤية جديدة حول دراسة اللغة الإنسانية كنظام من العلامات المرتبطة فيما بينها، مثلما سبق وأن رأينا عند روديبه وبالي. وبالنسبة لسوسير فإن القوة الدلالية للعلامات ليست في الشيء الذي تدل عليه (مرجعها) وليست في الفكرة التي ترتبط بها، لكن في العلاقات التي تربطها مع علامات أخرى في نظام اللغة. فالبنية اللغوية هي أساس دلالة الكلمات وليست المعرفة.

لقد تحصلت المقاربة البنيوية أولا على أفضل النتائج في ميدان الفونولوجيا عن طريق تحليل الفونيمات بسمات مميزة. ونجاحها دفع بالدلاليين إلى إيجاد مبادئ دلالية مماثلة لها. والبحث عن سمات مميزة في علم الدلالة، عن المعانم (sèmes) ...الخ. في البداية وفي نفس الوقت مهدت العلائقية السيميائية السوسيرية والنفسانية الجشطالطية الطريق نحو علم دلالة الحقول الدلالية والحقول المفهومية، وفيما بعد أدمجت مع علم الدلالة البنيوي وألحقت الآن بعلم الدلالة المعرفي.

لقد اشتغلت حلقة براغ اللسانية على السمات الفونولوجية وعن طريقها اشتغلت على السمات الدلالية، مع أنها أدت إلى البحث عن المبادئ الدلالية الأكثر شمولا. أشاع جاكبسون (Jakobson) من خلال دراسته حول الشعرية وأبحاثه في ميدان الحبسة دراسة الاستعارة والكناية كمبادئ في المعنى. ومن خلال هذا أطلق اتجاها في علم الدلالة متأثر بالبلاغة (جاكبسون 1956) ضد بعض اللسانيين البنيويين الراديكاليين (وقبلهم اللسانيين التاريخيين المقارنين) الذين درسوا اللغة في ذاتها ولذاتها، لهذا نادت شعرية ياكبسون من جديد بالإبداع الإنساني وبالذات المتكلمة التي توظف اللغة من أجل تحقيق عدة وظائف.

لكن يجب القول في نهاية المطاف إن التعريفات الياكبسونية للاستعارة (كآلية استبدالية تقوم على التماثل) وللكناية (كآلية توزيعية تقوم على التجاور). وقبل كل شيء الغموض بين التجاور التوزيعي والتجاور المرجعي يزيد من غموض دراسة الوظيفة الأساسية لهذه الصور في إطار التواصل والمعرفة أكثر مما يوضحها.

8-1- البلاغة الجديدة:

وهذا الأمر لا يقلل في شيء من قوة تأثيرهم خاصة في نقاشات علماء الدلالة والسيميائيين في البلدان الفرانكوفونية، حيث إن البلاغة تحت تأثير ضغط النحويين الشكلانيين أمثال تشومسكي، انبعثت من جديد في سنوات السبعينيات، وقد سجلت هذه الولادة الجديدة بالإصدارات الأولى لمجموعة يو (Groupe U) في البلاغة العامة، عند لوجارن (Le guern) وهنري (Henry) حول الاستعارة والكناية. وعند ريكور (Ricoeur)، تودوروف (TodoroV) وجونات(Genette) حول الاستعارة والصور والرموز، مسجلين كلهم العلاقة المباشرة التي تصل بين دي مارسيس وفونتانيي بأبحاثهم. ومثلما يقول جينات في تقديمه لفونتانيي: « قليل جدا هو الإرث الذي لا يهمنا مباشرة بحيث يستدعي جردا سريعا.» وعموما فقد جاء هؤلاء الباحثين الفرنكفونيين بعناصر جديدة لعلم الاستعارات وخصوصا تحليل المعانم (sèmes) ومفهوم التناظر الذي طور في السيميائيات القريماسية.

بدأ ريكور في سنوات السبعينيات يرد الاعتبار للاستعارة وللخطاب والنص وللذات المتكلمة، في تقاطعها مع البنيوية والظاهرانية والهيرمينوطيقا ومع نظرية أفعال الكلام. وقد بدأ ريكور من اللسانيات الحديثة لبينفنست. الذي أعطى الفرق بين اللسانيتين: لسانيات اللغة(السيميائيات) ولسانيات الخطاب (الدلالة): وتتجه البلاغة الجديدة نحو مستويين مختلفين للغة، وتأسس على نوعين من الوحدات:

العلامات من جهة، والجمل والملفوظات من جهة أخرى. وهذا مايسميه ريكور بالتحديد والتنبؤ، فلأنها علامة سيميائية فللكلمة عدة معاني، فهي تكدس ثروة دلالية. وفي الجملة تصبح الكلمة حاملة لمعنى كما يصبح لديها مرجع. يسعى ريكور إلى تحليل الجدل بين التعدد السيميائي والوحدة الدلالية أو التداولية. الكلمة من منظور سيميائي هي رمز، ومن

منظور دلالي تصبح موضوعا لهيرمونيطيقا الخطاب وهيرمينوطيقا النص. ومن خلال هذا المنظور الهيرمينوطيقى يمكننا إعطاء معنى ما للنصوص والخطابات، قبل توظيف اللغة توظيفا إبداعيا استعاريا. يقول ريكور محاكيا روديبه:

الابتكار الدلالي هو طريقة للإجابة عن تساؤل مطروح من أشياء بطريقة إبداعية: في حالات خطابية، وفي بيئة اجتماعية معينة وفي لحظة معينة، شيء ما يتطلب قوله عملا كلاميا يتجاوز اللغة التي تواجه الأشياء بالكلمات. وأخيرا فالمتاهة هي وصف جديد لعالم التمثيلات. ومن خلال فرجة اللغة وفرجة الكلام مع الأشياء التي تبدع من خلالها الاستعارات. بالإضافة إلى الكنايات– التي أضافها ريكور، عكس جاكبسون الذي جعل من الكنايات آليات لغوية في المستوى التوزيعي (النظمي) وعكس لوجان الذي لم يحاول كثيرا ربط الكناية بالمرجع. كتب ريكور يقول:

يظهر دور المرجع في العمل التأويلي لرسالة تضم كناية: ولفهمها يجب دائما اللجوء إلى معلومة مقدمة من السياق، وتستكمل هذه المعلومة من خلال الملفوظ الذي يظهر كحذف (إضمار).

المثال الكلاسيكي: أتريد كأسا (من الخمر)؟ يشتغل من خلال هذه الأفعال الدلالية والتأويل السياقي لنظام العلامات ونظام التمثيلات. تملأ هذه الأفعال من خلال مقصدية المتكلم وتأويل المستمع القيم السيميائية للعلامات بفائض المعنى، وبفائض استعاري: « إذا كان بإمكاننا إدماج فائض المعنى الذي تحمله الاستعارات في الميدان الدلالي فسيكون باستطاعتنا منع اتساع أكبر لنظرية المعنى الفعلي.»

إدماج فائض المعنى الذي تحمله الاستعارات في نظرية المعنى كان اشتغالا على سيميائية بلاغية جديدة نظر فيها لومبارت ومازالت إلى يومنا هذا حاضرة في البلاغة البنيوية الجديدة ذات الأصل الفرنسي، وكذلك بالنسبة للبلاغة الجديدة الأنجلسكسونية وبالنسبة للبلاغة المعرفية الحديثة.

8-2- البلاغة الجديدة:

شكلت سنوات السبعينيات فترة انبعاث البلاغة في إنجلترا والولايات المتحدة، حيث نجد فلسفة اللغة لبلاك(Black) من جهة، والبلاغة الجديدة من جهة أخرى مستمرة في أفكار كومبال (Campbell) وريتشارد(Richards) حول فلسفة البلاغة. ووفق هذا المفهوم الأنجلوأمريكي للبلاغة الجديد التي تمسكت من جديد بالقيمة الاجتماعية والتطبيقية للبلاغة مثل بلاغيي القرن الثامن عشر. كما تمسكت أيضا بالاستعارة كشكل جوهري للغة وللفكر.

تجاوزت النظرة إلى الاستعارة من مجرد ديكور بسيط أو كبديل بسيط لعلامة بأخرى إلى النظر إليها كوسيلة مميزة للتواصل. وقد تغيرت نظرتنا إلى الإستعارة كجوهر. ساندها أكثر جاكبسون قصد الكشف عن تفاعل أساسي جديد بين الأفكار والكلمات:

« للتعبير بطريقة بسيطة جدا: عندما نوظف استعارة ما فإننا نشغل فكرتين عن شيئين مختلفين مرتبطين بكلمة أو جملة واحدة والمعنى هو نتاج تفاعلهما».

الاستعارة هي ذهاب وإياب، وتبادل بين الأفكار(...) الفكر استعاري (...) والاستعارات اللغوية تنزاح من جديد إلى الفكر واللغة كبلاغة في عمومهما.

ينظر ريتشارد إلى هذا التفاعل الاستعاري كأساس بين تمثيلين مركبين، يسميهما حامل ومحمول Tenor et vehicle. ويرى بلاك في التفاعل أساسا بين الظواهر اللسانية: الكلمة والسياق. يقوم فهم الاستعارة على فهم التفاعل السياقي، المدعوم بالمرجع والإحالة إلى أفق معرفة ثقافية مشتركة يتقاسمها أطراف الحديث الذين ينطلقون في تفاعل خطابي.

ليس من قبيل الصدفة أن تكون سنة 1971 تاريخ إصدار وارن شيبل(Warren Shibles) أول بيبليوغرافيا للفهم الأدبي التي تكدست حول موضوع الاستعارة في السنوات الستينيات والسبعينيات.

9- الاتجاه السابع: العودة إلى البلاغة التاريخية والمعرفية والنفسية.

نقول في الأخير بأن سنوات السبعينيات طبعها إحساس بالضيق وسط اللسانيين الذين بدؤوا باكتشاف الفراغ الدلالي والتداولي الذي خلفه النحو التوليدي، فقد كشفوا ببطء عن الجوانب الوظيفية التداولية، وأخيرا بلاغة اللغة البشرية. أصدر لاكوف التوليدي المخيب وجونسون الفيلسوف الشاب في بداية الثمانينات. كتابهما المهم «نحيا بالاستعارة we live by métaphore». هذا الكتاب أحدث ثورة في اللسانيات تحت تسمية اللسانيات المعرفية.

المسلمة الأساسية لعلم الدلالة أو البلاغة المعرفية هي أن: هناك الاستعارات المفهومية من جهة، مثل الحجة هي الحرب Argument is war (لاكوف وجونسون 1980: 4) وحسب المثال فمفهوم الحجة ينبني من خلال مفهوم الحرب (التفاعل بين الأفكار)، تمنحنا هذه الاستعارة المفهومية ترسيمات (بحيث أن المؤلفين يُسمون عموما التجارب الجشطالطية التي تقوم على تجاربنا الجسدية، بالثقافية والتاريخية) قصد الحديث عن الحجج. ففي خطاباتنا

الحجاجية نستعمل هذه الترسيمات لبناء كلامنا. حيث نستعمل تعابير استعارية مثل: "جوابك دحض حجتي". (التفاعل بين الكلمات).

يطور هؤلاء المؤلفون تخطيطا معرفيا ودلاليا جديدا. فهناك أولا ما يسميه جونسون بالبنى المفهومية البدئية للصور المرتسمة مثل المضمن بالنسبة للمتضمن، والجزء بالنسبة للكل ...وهي صور منزاحة عن تجربتنا الجسدية والفضائية ثم هناك الاستعارات المفهومية القائمة على هذه الترسيمات مثل: الحجة هي الحرب. وأخيرا هناك الاستعارات اللسانية التي تنتج في الخطابات الحالية التي تقوم على هذه الترسيمات المفهومية البدئية وهذه الاستعارات المفهومية.ونجد هنا إجابة جديدة عن تساؤل أساسي يشغل كل سيميائية وكل دلالية ، وهو معرفة: كيف تأتي معاني الكلمات؟

ومثلما رأينا فالتمييز بين مستويين للاستعارة: المستوى المفهومي أو المعرفي أو الداخلي، والمستوى التعبيري أو الخارجي، تميز موجود في نظريات الاستعارة عند لومبارت، لكننا نجدها خاصة في نظريات الاستعارة التي أقترحها ويجنر (1885) وموثنر (Mauthner) (1901/02) والذين أسسوا جميعهم في تحليلاتهم الأخيرة لفلسفة البلاغة على الآراء التي اقترحها أرسطو والفلسفة السيميائية للوك. ومثل لاكوف، جونسون، تورينر واللسانيون المعرفيون الآخرين، فقد لمس هؤلاء الفلاسفة اللغويون علاقة حميمة بين اللغة والفكر بين المفاهيم والكلمات. وقد أوضحوا بأن الاستعارات والكنايات موجودة في كل جوانب اللغة الشعرية أكثر من العادية وبأن هذه الصور، أو هذه الاستعارات، وهذه الرسوم هي أساس تفكيرنا.

10- الخلاصة:

حاولنا في هذا المقال الإشارة إلى أن نظريات المعنى ونظريات الدلالة منذ علم تطور الألفاظ (السيماسيولوجيا) إلى الدلالة المعرفية ومنذ السيميولوجيا عند لومبارت إلى غاية السيميائية المعرفية، فأصولها ليست فقط في علم الدلالة التاريخي والنفسي، لكن بصفة عامة في فلسفة البلاغة والدلالة وفي البلاغة الدلالية والفلسفية وفي الدلالة البلاغية والفلسفية والتي تطورت جميعها في نهاية القرن الثامن عشر.